قيمة الاختلاف بين التدبير والتدبر قراءة في حدث جمع عثمان بن عفان الناس على مصحف واحد

إعداد الباحثة:

شيمـــاء فوخري

باحثة دكتوراة ـ كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالمحمدية ـ المغرب.

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد النبي الأمي، وعلى آله الطيبين الطاهرين ورضى الله عن الصحابة أجمعين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فهذا بحث بعنوان (قيمة الاختلاف بين التدبير والتدبّر، قراءة في حدث جمع عثمان بن عفان الناس على مصحف واحد) حاولت فيه الباحثة معالجة مسألة هامة وهي قيمة الاختلاف وأهميته، حيث بينت أن الاختلاف ظاهرة كونية لا مناص منها، وقيمة إنسانية مجمع عليها يكفلها الإسلام، الأصل فيها أن لا تُفسد للودّ قضية.

وقد قامت بتحديد ماهية الاختلاف باعتباره قيمة حاضنة لقيم أخرى كالتسامح والتعايش، مع بيان الأسباب التي جعلت المأمول من الاختلاف يخالف الواقع الذي نعيشه، ومن ثم اقترحت العلاج الذي به يتحول المنشود من الاختلاف إلى مشهود، وهو ما لا يمكن تحقيقه إلا بتدبر آيات الاختلاف وقراءة سيرة الخلفاء التي يمكن أن تشكل درسا منهجيا تستلهم منه ماهيةُ الاختلاف، لتُحقق المأمول منها حالا ومآلا.

كل هذا من خلال ضرب مثال بجمع عثمان بن عفان الناس على مصحف واحد، باعتباره درسا في التمييز بين الاختلاف الذي حقّه التدبير، والاختلاف الذي حقّه التدبّر، ودرسا في الفقه الاستشرافي في تدبير الاختلاف والانتقال به إلى ائتلاف. فقهٌ توقعي، لم يكتف بالوقوف عند النظر في حال اختلاف مصاحف الصحابة المشروع، بل تجاوزه إلى النظر في المآل، وما قد يؤول إليه هذا الاختلاف المشروع من مآلات غير مشروعة، وهو الفقه الذي لا بد وأن يستنبط من سيرة الخلفاء، ليغدو وسيلة بها تُدبر القيم المجتمعية لتحقق المنشود منها في الحال والمآل.

مجلة كلية الدراسات الإسلامية

The value of Differentiating between Administration Contemplation; a Reading of the Event in which Othman Gathered People around One Holy Book (Qur'an)

By: Shaymaa Foukhary
A PhD researcher,
Faculty of Arts and Humanities in Mohammadeya, Morocco
chaymae.chama1994@gmail.com

Abstract

In this research, the researcher has tried to tackle an important issue which is the value of diversity and its importance. The researcher has shown that diversity is an inevitable universal phenomenon and a human value generally acknowledged in Islam since diversity does not spoil the cause.

The researcher has identified the cause of diversity as it involves other values such as tolerance and co-existence. She has also examined the reasons that lead to think better of diversity than what we really have at hand. Then, she proposed the treatment that would turn the wishes into facts something that can hardly be achieved away from contemplating the verses of diversity and reading the biography of caliphs for the possibility of getting a lesson and a systematic approach to inspire the true meaning of diversity and the realizable wishes.

This has been tackled through the example in which Othman gathered the masses around one Book of the Quran. It is considered a lesson of diversity achieved by administration despite the difference effected by contemplation. There is also another lesson of oriental jurisprudence which recognizes diversity then moves into coalition. A kind of predictive

jurisprudence that not only examines the diversity of books submitted by the companions of Prophet Muhammad (Peace be upon Him) but also looks ahead to see what might illegally befall this project of diversity. This jurisprudence has to be extracted from the biographies of the caliphs so as to become a mean by which the social values are administered to achieve the expected wishes.

Key words: the value of diversity- administration and contemplation- collecting the Holy Quran, Othman Ibn Affan

تمهيــــــــد

كثيرا ما نقدم الاختلاف على أنه ظاهرة كونية لا مناص منها، مؤصلين لذلك بقوله تعالى:﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ سورة هود الآية ١١٨، وكثيرا ما نقدم هذا الاختلاف على أنه مساحة رحمة وسنة إلهية لا بد منها لقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴾ سورة الروم الآية ٢٢. ولا تكاد تخلو مجامعنا التي نجتمع فيها فنختلف، من شعارنا المعهود: الاختلاف لا يفسد للود قضية، بل تجدنا لا نكاد نفوت أدنى فرصة سانحة لنخرج على العالم بوجه بشوش ونقول: الاختلاف ثقافة إنسانية الاختلاف قيمة بشرية ، الاختلاف حتمية وجودية ، والحقيقة أن هذا الكلام الجميل لا يعدو أن يكون صورة افتراضية لواقع منشود، تخالف تماما الصورة الحقيقية للواقع الموجود، فاختلافنا قد أفسد كثيرا الود بيننا، وتفرقت بنا السبل، كل فرقة منا تدعي امتلاك ناصية الحقيقة، بل وقد تدعي أنها المعتصم الوحيد بحبل الله، في إشارة لصحة المرجعية وتذكير بعدم جواز المخالفة، وفي غياب تام لتحديد ملامح هذه المرجعية و ماهية حبل الله المعتصم به.

والذي لا شك فيه، أن الاختلاف ظاهرة كونية لا مناص منها وآية من آيات الله، ولكن أي اختلاف هو الآية؟ و هل يكفي أن يكون الاختلاف ظاهرة كونية، ليكون إرادة شرعية؟

إن وقوفنا في موقع المرحب بالاختلاف والداعي له، دون التحديد الدقيق لماهية الاختلاف، ودون الإجابة المتأنية عن السؤالين السابقين هو ما جعل واقع الاختلاف يناقض تماما المتوقع منه، هو ما جعل المنشود: أن لا يفسدَ الاختلاف للود قضية ، في حين أن الموجود عكس ذلك تماما.

ولأن رهاننا اليوم هو أن نلفي العلاج لتعدد شخصية الاختلاف "الانفصامي" بين الواقع والمتوقع، ولأن علاج الأعراض يكون بعلاج مُسبباتها، وتعددُ شخصية الاختلاف عَرَض له مُسبِّب، فإن رحلة العلاج التي نروم خوض غمارها، لا يمكن أن تحقق المتوخى منها إلا إذا انطلقت انطلاقة صحيحة، وأصح وضعية للانطلاق هي: تحديد المسببات التي كانت الفاعل الأساسي في صنع الشرخ وتعميق الهوة بين العالم الافتراضي للاختلاف، وبين العالم الواقعي له.

مجلة كلية الدراسات الإسلامية

وهو ما تروم هذه الورقة بسط القول فيه، بالوقوف عند التحديد الدقيق لماهية الاختلاف باعتباره قيمة حاضنة لقيم أخرى كالتسامح والتعايش، مع بيان الأسباب التي جعلت المأمول من الاختلاف يخالف واقع الاختلاف، ومن ثم اقتراحُ العلاج الذي به يتحول المنشود من الاختلاف إلى مشهود، وهو ما لا يمكن تحقيقه إلا بتدبر آيات الاختلاف وقراءة سيرة الخلفاء التي يمكن أن تشكل درسا منهجيا تستلهم منه ماهيةُ الاختلاف، ويستمدّ منه الفقهُ الاستشرافي الذي به تُدار هذه القيمة وتدبر، لتُحقق المأمول منها حالا ومآلا.

قيمة الاختلاف وأزمة التأصيل.

ونستهل هذه الورقة بتدبر آيات الاختلاف، وذلك بغية تحديد المسببات التي عززت انفصام الاختلاف بين واقعه والمتوقع منه، بين منظوره والمنتظر منه.

و من المؤسف أن سبب هذا الفصام هو: التأصيل!

نعم إن أزمتنا مع قيمة الاختلاف هي أزمة تأصيل!

كيف ذلك؟

إننا وحين التأصيل لمشروعية الاختلاف تجدنا ننطلق من قوله تعالى: " ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم "، والحقيقة أن المتأمل في هذه الآية يجدها تقدم الاختلاف على أنه ظاهرة كونية، لا على أنه إرادة شرعية، فهل يكفي أن يكون الاختلاف ظاهرة كونية ليكون إرادة شرعية؟

مجلة كلية الدراسات الإسلامية

-قيمة الاختلاف- بين المشيئة الكونية والإرادة الشرعية.

إن الجواب عن هذا السؤال حتما سيكون بالنفي، لأن المشيئة الكونية لا تعادل دائما الإرادة الشرعية، فقد شاء الله عز وجل أن يوجد الكفر والإيمان، ولم يرد لنا سبحانه الكفرَ وأراد لنا الإيمان. يقول الإمام ابن تيمية: « ينبغي أن يعرف أن الإرادة في كتاب الله على نوعين: أحدهما: الإرادة الكونية وهي الإرادة المستلزمة لوقوع المراد التي يقال فيها: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وهذه الإرادة في مثل قوله: {فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا}... وهذه الإرادة هي مدلول اللام في قوله: {ولا يزالون مختلفين} {إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم}... وأما (النوع الثاني: فهو الإرادة الدينية الشرعية وهي محبة المراد ورضاه ومحبة أهله والرضا عنهم وجزاهم بالحسنى كما قال تعالى: {يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر} وقوله تعالى {ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم} » . وعليه، فلا يلزم من كون الاختلاف ظاهرة كونية، كونه إرادة شرعية، فكل اختلاف هو ظاهرة كونية وليس كل اختلاف إرادة شرعية، ومن هنا وجب طرح السؤال ما هو الاختلاف المشروع لنا؟

الاختلاف الآية

إن ما يجوز لنا من الاختلاف بل ويستحب، هو الاختلاف الذي تعلقت به الإرادتان: الإرادة الكونية والإرادة الشرعية، وهو الاختلاف الآية، لأن ما كان آية من آيات الله لا يمكن إلا أن يتعلق بمشيئة الله وإرادته سبحانه وتعالى.

هذا الاختلاف هو ما جاء صريحا في قوله جل وعلا: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴾ سورة الروم الآية ٢٢.

إن تأمل هذه الآية وتدبرها يوصلنا إلى حد وتعريف جلي للاختلاف الآية : إنه الاختلاف الحاصل في ذواتنا، اختلاف ألسنتنا واختلاف ألواننا، وهنا لن نحمل اللفظتين " ألسنة " و"ألوان" على معناهما النسبي، اللغة ولون البشرة، وإنما سنحملهما على المعنى المطلق الواسع لأن الأصل في المعنى القرآني الصالح لكل زمان ومكان أن يبقى على سعته وإطلاقه، سنحمل اللون على معنى الهيئة، لأن اللون هيئة ، وسنحمل اللسان على معنى : الجهاز المسؤول عن عملية الكلام، لأن اللسان هو جارحة الكلام .

فيكون بالتالي: الاختلاف الآية هو الاختلاف المتعلق باختلاف هيئاتنا أي مطلق ظواهرنا، لكن ظواهرنا التي هي منا، لا ظواهرنا التي هي مما طرأ علينا، بدليل قوله تعالى: " ألوانكم " لا "تلوناتكم".

ويكون الاختلاف الآية هو الاختلاف المتعلق بدواخلنا، لكن هذه المرة ليس مطلق دواخلنا وإنما ما تعلق بجارحة الكلام ، أي الجهاز المسؤول عن عملية الكلام، فيستثنى من اختلاف دواخلنا اختلافُ قلوبنا، لأن الأصل في القلوب الائتلاف.

ولا يخفى على أحد أن الكلام تفكير وتعبير، فالتفكير استقبال ومعالجة، والتعبير إرسال، قال تعالى: ﴿إذ تلقّونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم﴾.

فعملية الكلام تنقسم إلى مراحل ثلاث: الاستقبال ثم المعالجة ثـم الإرسـال، ولكـل مرحلـة أجهزة خاصة بها تقوم بمهام معينة تختص بتلك المرحلة ، وعلى ذلك، فإن عمليـة الكـلام أو جارحة الكلام التي هي آية من آيات الله لا يمكن اختزالها في الإنجاز التعبيري فقط، بل، إنها توليف بين عملية التفكير وعملية التعبير، وعلى ذلك يكون اختلاف أنماط إدراكنا واختلاف قدراتنا التحليلية وأنماطنا التمثيلية وإنجازنا اللغوي...، آية من آيات الله، ويكون ما ذكرنـاه من اختلاف هيئاتنا واختلاف أجهزتنا المسؤولة عن عملية الكلام، هو الاختلاف الآية الذي تعلقت به الإرادتان: الإرادة الشرعية والإرادة الكونية.

هذا فيما يخص الاختلاف الذي تعلقت به الإرادتان، فماذا عن الاخـتلاف الـذي تعلقـت بـه الإرادة الكونية فقط ولم تتعلق به الإرادة الشرعية، فهل هو اختلاف مذموم؟

في الحقيقة ليس الاختلاف المتعلق بالإرادة الكونية فقط، مذموما وإنـما المـذموم أن لا يُسـعى لتدبير هذا الاختلاف و الانتقال به إلى الوفاق و الائتلاف.

الاختلاف المِحكّ

لماذا لا يعد الاختلاف المتعلق بالإرادة الكونية فقط مذموما؟

لأن الاختلاف المتعلق بالإرادة الكونية فقط، هو الاختلاف المِحكّ الذي نختبر عنده ولاءنـا لله ولرسوله، إنه إرادة كونية تمكننا من إتيان الإرادة الشرعية ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا و لا تفرقوا﴾ سورة آل عمران ١٠٣ ﴿ فـإن تنـازعتم في شيء فـردوه إلى الله والرسـول إن كنـتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ سورة النساء الآية ٥٩.

فالاعتصام بحبل الله ورد الشيء إلى الله وإلى الرسول لا يمكن للمرء إتيانها وممارستها باعتبارهما إرادة شرعية، إلا إذا وجدت الإرادة الكونية ﴿ ولا يزالون مختلفين ﴾، ولهذا الاعتبار كان الاختلاف المتعلق بالإرادة الكونية غير مذموم، وكان عدم السعي في الانتقال بهذا الاختلاف من الإرادة الكونية إلى الإرادة الشرعية مذموما.

ومن الإشارات التي أحب أن أثيرها في هذا المقام اختلاف المفسرين في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ، إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ سورة هود الآية ١١٨، فمن المفسرين من قال: للرحمة خلقهم ومنهم من قال خلقهم للاختلاف، والحقيقة أن التعبير القرآني الدقيق يفيد أن الله عز وجل قد خلقنا للاختلاف وللرحمة معا، فلو كان الله عز وجل قد قصد الرحمة لقال وللرحمة خلقهم ولو كان قد قصد الاختلاف لقال : وللاختلاف خلقهم، فعدم التعيين إذن يفيد أن "ذلك" عائدة على الرحمة و على الاختلاف في آن واحد.

نعم، إن الله قد خلقنا لنختلف بحكم "إرادته الكونية " وخلقنا ليرحمنا بالائتلاف بحكم "إرادته الشرعية".

أزمة التأصيل: ارتباك في التمثل وارباك للتمثيل!

لماذا كانت أزمة الاختلاف بين واقع الاختلاف والمأمول من الاختلاف أزمة تأصيل؟

إن الارتباك في تعيين "الاختلاف الآية" بالتأصيل لكل اختلاف بقوله تعالى: ﴿ ومن آياته اختلاف ألسنتكم وألوانكم ﴾، وإنزال الاختلاف الذي هو بمثابة "الإرادة كونية" منزلة "الإرادة الشرعية"، استنادا لقوله تعالى: ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين﴾، جعلنا لا نسعى للارتقاء بالاختلاف من مستوى الإرادة الكونية إلى

مستوى الإرادة الشرعية لارتباكنا في تعيين الفرق بينهما، بل إن الخلط والارتباك جعلانا أحيانا نثور ضد ما هو من قبيل الاختلاف الآية.

ثم إن خلطنا بين الاختلاف باعتباره ظاهرة كونية والاختلاف باعتباره إرادة شرعية، جعلنا نفقد نظرتنا الاستشرافية وخطواتنا الاستباقية، فكم من اختلاف حكمنا له بأنه محمود دون أن ننتبه إلى أن هذا الاختلاف المحمود هو محمود آنا وحالا، وقد يصبح يوما ما، لأننا لم نعيّره بناء على منهج منضبط- من قبيل الاختلاف المذموم، رغم كونه اختلافا لم يصدر عن الهوى، ورغم كونه لم يسبب الفرقة بين المسلمين في وقت من الأوقات.

فلا يمكن إذن أن نحكم على اختلاف بأنه اختلاف مشروع لمجرد كونه لم يصدر عن الهوى ولم يسبب الفرقة بين المسلمين، لأنها محددات غير منضبطة، قد تشرع لما هو محمود حالا وآنا ومذموم مآل واستقبالا.

وعلى ذلك يكون التأصيل لمشروعية الاختلاف أو مشروعية نوع من الاختلاف لمجرد وجوده في القرون الأولى للإسلام، خطأ منهجيا لا بدّ أن يستدرك، وهو ما سنأتي على بيانه في القسم الثاني من هذه الورقة، حين الوقوف مع حدث جمع عثمان الناس على مصحف واحد.

إدارة الصحابة للاختلاف بين "التدبير" و "التدبر".

إن سيرة الصحابة هي انفعال للمجتمع الإسلامي الأول بالقرآن و تفاعل لهذا المجتمع المنفعل بالقرآن مع الواقع، ولذلك فإنها لا تخلو من دروس منهجية في فهم القرآن وتنزيله على الواقع، خاصة في لحظات الانعطاف التاريخية التي عادة ما يبزغ عندها الحس المنهجي لعقل المجتمع المنفعل بإرثه، والمتفاعل مع لحظة المنعطف.

ولذلك سنقف وقفة تأملية مع منعطف من المنعطفات التي شهدها المجتمع الإسلامي في صدره الأول وهو: حدث جمع عثمان بن عفان رضي الله عنه الناس على مصحف واحد، هذا الحدث الذي لا يمكن إلا أن نصفه ب: 'لحظة الانعطاف' حيث نُلقّى درسا في التمييز بين الاختلاف الذي حقّه التدبير والاختلاف الذي حقّه التدبّر، ودرسا في الفقه الاستشرافي والتحرك الاستباقي لوقاية المجتمع من الأزمات.

فها هو المجتمع الإسلامي يعيش سكينة اللحظة ورتابة الأحداث ثم ينفجر في الرقعة الإسلامية وينفرج حدث يقلب الموازين، "يا أميرَ المؤمنينَ أدركْ هذه الأمةَ قبلَ أن يختلِفُوا في الكتابِ اختلافَ اليهودِ والنصارى" .

فبعد أن اتسعت رقعة بلاد المسلمين وتفرق الصحابة في الأمصار يُقرِئون القرآن، كان الناس يَقرؤون كما أُقرِئوا، فأهل الشام يقرؤون بقراءة أبي بن كعب، وأهل الكوفة يَقرؤون بقراءة عبد الله بن مسعود، وأهل البصرة يقرؤون بقراءة أبي موسى الأشعري وهكذا .

وكان هؤلاء الصحابة قد شهدوا نزول القرآن وسمعوه من النبي وعَلموا وجوه قراءته، ولم يكن شيءٌ من ذلك لِمن تعلَّم منهم في الأمصار، فكانوا إذا اجتمع الواحد منهم مع من قرأ على غير الوجه الذي قرأ عليه يعجبون من ذلك، ويُنكر بعضهم على بعض، وقد يصل الأمر إلى تأثيم أو تكفير بعضهم بعضا .

قال مكي بن أبي طالب: وكان ذلك قد تعارف بين الصحابة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، فلم يكن ينكر أحد ذلك على أحد لمشاهدتهم من أباح لهم ذلك وهو النبي صلى الله

عليه وسلم فلمَّا انتهى ذلك الاختلاف إلى ما لم يعاين صاحبَ الشرع، ولا علِم بِـما أباح من ذلك، أنكر كل قوم على الآخرين قراءتهم واشتد الصراع بينهم .

وهنا جاء نداء حذيفة بن اليمان إلى عثمان بن عفان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة !

وكانت الاستجابة: بأن أمر عثمان بن عفان رضي الله عنه بتدارك الاختلاف وجمع الناس على قراءة واحدة، القراءة العامة التي كان يقرؤها عامة الصحابة في المدينة، وغيرها من الأمصار، وهي القراءة التي كتب عليها زيد رضي الله عنه في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وفي خلافة الصديق .

ولن أستفيض أكثر في رصد هذا الحدث، لأن ما يهمنا من حدث الجمع ليس هو منهج الجمع ولجنة الجمع وكيفية الجمع، إن ما يهمنا في هذا المقام استخلاص الدروس المنهجية من الحدث العام؛ حدث الجمع.

•المصحف العثماني: من الانفعال الاسترشادي بالقرآن إلى التفاعل الراشد مع الواقع.

ولاستخلاص هذه الدروس لا بد من "أشكلة" هذا الحدث، لأن الاستشكال هو المسار الأقصر للفهم، فبالسؤال نعيد تمثيل الحدث وتمثله إذ نستحضر روح الحدث لنعيش التجربة من جديد.

وأول سؤال نطرحه على العقل العثماني : ألم يكن الاختلاف في القراءة حاصلا على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وعلى عهد صحابته من بعده؟

وإذا كان الجواب ب"نعم" وهو حتما ب"نعم ".

أفلا يعطي إذن حصول هذا النوع من الاختلاف على عهد النبي مشروعية دائمة له؟

وكيف يا عثمان ترفع اختلافا قد أقره النبي صلى الله عليه وسلم وتضيق مساحته؟

السنة النبوية: بين الفعل ومنهج الفعل

إن عقلا فاقدا للبوصلة المنهجية قد تربكه هذه الأسئلة، وقد تجعله إذا ما استُنجد به وقيل له: أدرك هذه الأمة يا فلان، يقف مشدوها متحرجا من مخالفة فعل النبي.

ولكن عقلا راشدا هو عقل عثمان عُلّم الكتاب والحكمة، لا يفوته أن ينظر إلى السنة على أنها منهج الفعل لا مجرد الفعل .

ولذلك لا يجد عثمان حرجا في أن يخالف فعل النبي ليوافق سنة النبي ، وفي لحظة الانعطاف، تنعطف الأحداث في المجتمع الإسلامي ويلوح منهج عثمان رضي الله عنه مستقيما، فيستقيم المنعطف!!

إننا كثيرا ما نعرف الاختلاف المذموم على أنه الاختلاف الناجم عن الهوى، الذي ينطلق من الأسباب والدوافع الذاتية ، ونعرف الاختلاف المحمود بأنه اختلاف التنوع وأنه الاختلاف الحاصل في الأمور الظنية، وقد ذكرت آنفا أنها محددات غير منضبطة، ويأتي الدرس العثماني ويؤكد عدم انضباطها ويجلي أمامنا ارتباكنا المنهجي في تصنيف الاختلاف.

إننا وحين الحديث عن اختلاف القراءة نكون أمام اختلاف تنوع غير ناجم عن الهوى، غير منطلق من الدوافع الذاتية، غير متعلق بالأمور الظنية، بل إنه اختلاف حصل على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، فكل القرائن إذن تفيد بأنه اختلاف مشروع ولكن، ورغم هذا، يحكم عثمان بن عفان وغيره من الصحابة بضرورة تدارك هذا الاختلاف وتلافيه.

إنه الفقه الاستشرافي وهو الفقه الذي تحتاجه الأمة اليوم، نحتاج من يمتلك فقه المآل نحتاج أمثال حذيفة لينادي فينا "أن أدركوا هذه الأمة"، ونحتاج عقلا عثمانيا راشدا يستجيب.

جمع المصحف: بين تمثل الاختلاف وتمثيله.

إنه عادة ما يوصف حدث جمع عثمان الناس على مصحف واحد ب"الجرأة" و" الشجاعة" ، ولا أدري لماذا يرى بعضهم أن يصف الإقدام على جمع المصحف ب" الشجاعة " ! أي دلالة يحملها هذا اللفظ؟ وأي علاقة بين دلالة هذا اللفظ وبين حقيقة الفعل؟ جريء على ماذا؟ شجاع على من؟

في الحقيقة، لا علاقة لخطوة جمع المصحف بالجرأة والشجاعة، فخطوة الجمع كان محركها اليقظة المنهجية والحس الاستشرافي والانفعال بالقرآن والتفاعل مع الواقع وهو ما يشكل في مجموعه خاصية "الرشد" التي جاءت وصفا للخلفاء ، هذا الرشد هو الذي جعل عثمان رضي الله عنه يتمثل قيمة الاختلاف تمثلا صحيحا، والتمثل الصحيح ينجم عنه لا محالة التمثيل الصحيح.

إن الاختلاف هو وكما بينا في المقدمة المنهجية مزدوج الصفة، فهو إما أن يكون إرادة كونية وإما أن يكون إرادة كونية وشرعية في آن واحد، والاختلاف في كلتا الحالتين قيمة، لكن التمثل الخاطئ لهذه القيمة قد يؤدي بها إلى انحراف مشهودها عن منشودها.

ولأن العقل العثماني انفعل بالقرآن انفعالا استرشاديا فإن تفاعله مع الواقع جاء تفاعلا راشدا، فميز عثمان بين الاختلاف الذي من هو قبيل الإرادة الكونية والذي حقه التدبير وبين الاختلاف الذي هو من قبيل الإرادة الشرعية والذي حقه التدبر.

-قيمة الاختلاف- بين الاختلاف الآية والاختلاف المحك.

إن قيمة الاختلاف قيمة سامية ولا ريب في ذلك، فهي قيمة تحفظ للمجتمع ثراءه الثقافي وغناه الفكري، ولكن هذه القيمة لا بد أن تدار الإدارة الصحيحة لتحقق المأمول منها.

فإذا كانت هذه القيمة في مجتمعنا الحالي تعيش لحظة فصام، فإن سوء التمثيل راجع لسوء التمثل _ كما ذكرنا آنفا _، ولتجاوز ذلك يفترض استلهام واستدعاء المنهج القرآني في إدارة هذه القيمة والذي جلينا تفاصيله في المقدمة المنهجية.

مجلة كلية الدراسات الإسلامية

فإذا كان تأمل آيات الاختلاف يحيلنا على حقيقة مفادها أن الاختلاف صنفان: اختلاف تعلقت به الإرادة الكونية فقط واختلاف تعلقت به الإرادتان الكونية والشرعية، فإن هذه الحقيقة تحيلنا على منهج إدارة هذا الاختلاف بصنفيه.

الصنف الأول: الاختلاف الذي تعلقت به الإرادتان الكونية والشرعية: " وهو الاختلاف الآية" وحق هذا الصنف أن يُتَدبّر لأنه آية من آيات الله وآيات الله تُتدبر، والتدبر هو: أن نتأمل هذا الاختلاف الذي قصد الله عز وجوده " خلقا " وقصد بقاءه واستمراره على حاله " شرعا " ، ونسعى إلى تعزيزه وتثبيته في المجتمع لكي يوافق قصدنا قصد الشارع، لأن هذا النوع من الاختلاف هو منبت التعددية الثقافية والتنوع الإنساني،أي أنه الاختلاف الذي يحفظ لهذا المجتمع تطوره واستمراره، وينبغي أن يعلم أن كل سعي نحو تثبيط هذا النوع من الاختلاف هو من قبيل مخالفة المكلف لقصد الشارع.

والصنف الثاني: الاختلاف الذي تعلقت به الإرادة الكونية فقط: " وهو الاختلاف المِحك"، وقد ذكرت فيما سبق أنني قصدت بالمِحك أنه الاختلاف الذي نختبر عنده ولاءنا لله ولرسوله، وحق هذا الاختلاف التدبير: والتدبير هو أن نسعى لرفع هذا الاختلاف إذا لاح في الأفق داع إلى ذلك ليحل محله الائتلاف، لأن هذا النوع من الاخـ تلاف قد قصد الله

وجوده " خلقا" وقصد رفعه " شرعا"، ولا يزالون مختلفين "خلقا" إلا من رحم ربك "شرعا".

وتدبير هذا الاختلاف " الإرادة الكونية" والارتقاء به إلى مستوى الإئتلاف "الإرادة الشرعية"، يتم عبر العودة إلى الأرضية المشتركة ،﴿ قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ سورة آل عمران الآية ٦٤، هذه الكلمة السواء بين المختلفين في عهد عثمان بن عفان كانت هي: "المصحف الإمام"، حيث جمع عثمان رضي الله عنه الناس على قراءة واحدة، القراءة العامة التي كان يقرؤها عامة الصحابة في المدينة، وغيرها من الأمصار، وهي القراءة التي كتب عليها زيد رضي الله عنه في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وفي خلافة الصديق . فكان الائتلاف هو العودة إلى المشترك، العودة إلى الإمام فالهمزة والميم في اللغة "أم" هي: الأصل والمرجع.

التأسي بالصحابة: من إقامة الرشد إلى ترشيد القيم

إن إدارة قيمة الاختلاف إذن بين التدبير والتدبر تستلزم فقها استشرافيا ونظرة استباقية واسترشادا بهدي القرآن الذي يهدي إلى الرشد " إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد" ، وهي الخصائص التي تحلى بها الخلفاء الراشدون، ولذلك أمرنا نبينا عيه الصلاة والسلام بالاستمساك بسنته وسنة خلفائه الراشدين من بعده، يقول عليه الصلاة والسلام:" عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ"، فإذا كنا اليوم نجتمع لنتدارس عوامل التأسيس والتأسي بسيرة الصحابة فإنه ينبغي أن يعلم أن تأسينا بهم ينبغي أن يكون تأسيا بسنتهم، والسنة: المنهج.

مجلة كلية الدراسات الإسلامية

لذلك فإن تأسِّينا بالصحابة لا ينبغي أن يقف عند التأسي بأفعالهم بل ينبغي أن يتعداه إلى التأسي بالمنهج الذي صدر عنه الفعل، فإذا كان الصحابة قد اختلفوا وائتلفوا فإنه لا ينبغي أن نتأسى بمجرد الفعل "الاختلاف تارة والائتلاف تارة أخرى " لأن هذا قد يوقعنا في الاضطراب والارتباك، بل ينبغي أن نتأسى بمنهجهم، ونرجع إليه باعتباره المنهج الإمام.

فإذا كنا نروم بناء مجتمع القيم فإنه ينبغي أن نتأسى برشد الصحابة أولا، لأن مجتمع القيم يقوم على رشد أفراده، وما لم نحقق الرشد في الأفراد، خاصة من يؤمنا منهم، فإن مجتمع القيم سيظل حلما ننشده، ولا نشهده.

التأسي بالصحابة: تأس بمجتمع الرشد وتأسيس لمجتمع القيم.

وعليه، فإن التأسي بالصحابة ليس في الأخذ بقيمهم " اختلافهم " أو "ائتلافهم" ، بل في الأخذ برشدهم، لأن القيم ثمرات لمجتمع الرشد، وإذا حققنا الرشد فإننا حتما حينها سنحقق مجتمع القيم الذي يتمثل الاختلاف تمثلا صحيحا، فيعزز الاختلاف الآية ويوطده، ويدبر الاختلاف المحك ويتجاوزه، مجتمع يتعايش أفراده على اختلاف ألسنتهم وألوانهم لأنهم يؤمنون بـ: "آية الاختلاف"، ويأتون حين النزاع إلى المشترك الإنساني لأنهم يؤمنون ب"الكلمة السواء".

إن السبيل إذن لبلوغ المنشود من الاختلاف وإحالته إلى موجود، هو إيقاظ الحس المنهجي، وتفعيل خاصية الرشد، لتمثل الاختلاف تمثلا صحيحا، وذلك بالانتباه إلى الفرق بين اختلاف متعلق بالإرادتين: الكونية والشرعية وبين اختلاف متعلق بالإرادة الكونية فقط، بين اختلاف "آية" لا بد وأن نتدبره وبين اختلاف لا بد وأن نُدبّره.

وما لم نمض في طريق هذا التحديد الدقيق لما يُتدبّر من اختلاف مما يُدبّر منه فإن واقع اختلافنا سيضل يخالف المتوقع منه، لأن الخلط سيجعلنا ندبّر ما حقه التدبّر ونتدبّر ما حقه التدبير، وهو الأمر الذي سيجعلنا نناقض الإرادتين الكونية والشرعية من حيث لا ندري، مما سيعمق أكثر فأكثر تعدد الشخصية الانفصامي للاختلاف بين واقعه والمأمول منه !

وإذا كان عثمان رضي الله عنه قد رجع بالناس إلى المصحف الإمام فإنه قد آن الأوان لنعود بأنفسنا إلى "الرشد" باعتباره المنهج الإمام الذي يفترض أن نعض عليه بالنواجذ لنبني المجتمع الإمام، والأمة الإمام ، أمة الشهود الحضاري !

مجلة كلية الدراسات الإسلامية

لائحة المصادر والمراجع

١- الإبانة عن معاني القراءات، مكي بن أبي طالب القيسي، المحقق: عبد الفتاح إسماعيل شلبي، دار نهضة مصر، سنة النشر: ١٩٧٧.

٢- اضطرابات التواصل، المفهوم التشخيص والعلاج، عصام نمر عواد، الناشر: دار اليازوري العلمية.

٣- دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، المحقق: د. محمد السيد الجليند، الناشر: مؤسسة علوم القرآن – دمشق، الطبعة: الثانية، ١٤٠٤.

٤- رسم المصحف دراسة لغوية تاريخية، غانم قدوري الحمد، الناشر: الجمهورية العراقية: اللجنة الوطنية للاحتفال بمطلع القرن الخامس عشر الهجري، سنة النشر: ١٤٠٢ - ١٩٨٢.

٥- الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم، يوسف القرضاوي، طبعة دار الشروق ٢٠٠١.

٦- عثمان بن عفان ذو النورين، عباس محمود العقاد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر.

٧- العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه، القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الاشبيلي المالكي، قدم له وعلق عليه: محب الدين الخطيب رحمه الله، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – المملكة العربية السعودية الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ.

٨- القبس في شرح موطأ مالك بن أنس،أبو بكر بن العربي المالكي،المحقق: محمد عبد الله ولد كريم، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى.

٩- لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١هـ)، الناشر: دار صادر - بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ.

١٠- مختصر التعامل مع السنة النبوية، طه جابر العلواني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى.

١١- مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزُّرْقاني المتوفى: ١٣٦٧هـ، الناشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة: الطبعة الثالثة.

١٢- المنح الربانية للشخصية المحمدية، خالد الجندي، دار المعرفة بيروت لبنان، الطبعة الأولى.